الشاعر الفقي

السمات ... والمحطات

د. / جميل محمود هاشم مغربي
قسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

مثلما تأتّى لأبي الطيب أن يشكل ظاهرة فريـدة في الأدب العربي مـن خـلال عكـوف أكبر عدد من الشرّاح على ديوان شاعر ، وتناوله بالتفسير والتحليل[1] ، الأمـر الـذي اقتضى بروز ظاهرة نقد الشروح ، واختلاف النقاد حوله وحول شاعريته ، بـين مؤيـد ومنـاوئ ، أو انتهاج الوسطية ، أو التظاهر بالوسطية والحيدة ، وبتشعب ذلـك إلى جملـة مـن الدراسـات المتصلة بشعره[2] .

فلقد تأتّى للشاعر محمد حسن فقي أن يشكل ظاهرة فريدة في الشعر العربي على مر عصوره ، من حيث غزارة الانتاج ، والتدفق الشعري ، فلقد تسنى له ان يصدر ديوانـه الأول (قـدر ورجـل) عـام ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م ثـم اصـدر في عـام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ديوانـه (رباعيات) ، وأردفه بمجموعة أعماله الكاملة (عدا الأعمال السـابقة) بين الأعـوام ١٩٨٤م - ١٤٠٤هـ ، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م في ثمانية مجلدات[3] ، يقع أصغرها في ٤٣٦ صفحة ، وأكثرها ضخامة في ٧٢٠ صفحة ، عدا الفهارس[4] ، لذلك نجد أحد الدارسين يصف قصائده وشاعريته المتدفقة بقوله :(لكن الشاعر بقليل منها يستطيع أن يكون أكثر شعراء البلاد روائع. وأكثرهم أيضاً شعراً ، فلا يباريه في هذا الميدان أي فارس إنه أكبر شعراء المملكة)[5] .

وعلى الرغم من أن غزارة الانتاج قد تدرج ضمن المزايا التي تحسب للشاعر ، وتحقق لـه الندرة والتميز ، كما يعبر عن ذلك حسن بن عبدالله آل الشيخ في تقديمه للمجلد الأول من اعمال الشاعر ، وهو يمثل رأياً نقدياً على كل حال :

(فهو بما قدم ويقدم يقف بجـدارة في القمـة مـن شـعراء العصـر الحديـث نوعيـة وانتاجـاً وغزارة ..

ولست في موقف المعبّر عن الثروة الكبيرة التي شاء الله أن يهبها لشاعرنا الكبير ، لكـني أدعو الله أن يمنحه المزيد من القوة والصحة حتى نظل على لقاء دائم معه ، وحتى نستطيع أن نقول للدنيا إن في الجزيرة شعراء استطاعوا بجدارة فرض شاعريتهم ونبوغهم ، كامتداد طبيعي

لدور هذه الجزيرة وشعرائها في إثراء المكتبة العربية ، والشعر العربي ، بكل ما هو حافل وبجيد)[٦].

إلا أنها قد تنطوي على ما يسهم في غمز قناة الشاعر ، من خلال الأحكام التعميمية التي توهم اقتران غزارة الانتاج بالابتذال والاسفاف ، كما صنع الدكتور الحامد حينما قال :

(وكثرة شعره الجيد لا يعد شاعراً أصيلاً فحسب ، بل ومن شوامخ الشعراء المعاصرين ، أرجو أن لا يفهم من ذلك أن ذلك السيل المتدفق من قصائده من الشعر الرائع ، بل أزعم أن أكثره من الشعر المتوسط وآخر منه غثاء لا خير فيه ، لكن الشاعر بقليل منها يستطيع أن يكون أكثر شعراء البلاد روائع)[٧] .

ومرد هذا الحكم في تصوري يتناسب عكسياً مع غزارة الشعر ، فغزارته مدعاة لاصدار الاحكام المنطوية على عجل وتعميم ، لتعذر العكوف عليه بالدراسة ، والتحليل ، واستنباط الملامح والخصائص العامة ، وفق مقتضيات الدرس العلمي ، وما تمليه مناهج النقد ، خاصة وأن التاريخ يرفدنا بشخصية شعرية غزيرة الانتاج ، هي شخصية الشاعر أبي العتاهية ، الذي كان يقول: (لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت)[٨] .

ولذلك كان الخلاف حول جودة شعره قائماً ، وانطوت ترجمته في الأغاني على النقيضين ، بل وعلى الحكمين المتناقضين في الخبر الواحد ، كما قال أبوالفرج: (ويقال: أطبع الناس بشّار والسيّد [الحميري] وأبوالعتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته . وكان غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف ، إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك)[٩] .

ولذلك رأينا ابن الأعرابي ينبري بالشتم لمن عاب شعره في خبر رواه أبوالفرج حينما (حُمَّ الرشيد فسار أبوالعتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة فيها :

لو علم الناس كيف أنت لهم ماتوا إذا ما أَلِمْتَ أجمَعُهُمْ
خليفة الله أنت ترجُحُ بالناس إذا ما وُزنتَ أنت وهُمْ

قد علم الناسُ أن وجهك يَـْ تغني إذا ما رآه معدِمُهُمْ

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيدَ فأمر بإحضار أبي العتاهية فما زال يسامره ويحدثه إلى أن بَرِئ ووصل إليه بذلك السبب مال جليل .

قال : وحُدِّثتُ أن ابن الاعرابي حدّث بهذا الحديث ، فقال له رجل بالمجلس : ما هذا الشعر بمستحق لما قلت . قال : ولم ؟ قال : لأنه شعر ضعيف . فقال ابن الاعرابي -وكان أحد الناس- الضعيفُ والله عقلُك لا شعرُ أبي العتاهية ، ألأبي العتاهية تقول : إنه ضعيف الشعر أفوالله ما رأيت شاعراً قط أطبعَ ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبَه إلا ضرباً من السحر (١٠) .

لقد أتيح لي ضمن جملة من أتيح لهم متابعة شعر الشاعر الفقي منذ مراحل الصبا ، عبر ما نشره في الصحف والمجلات السعودية ، وسددت النقص الذي سبق تلك السنين بالاطلاع على ديوانه الأول (قدر ورجل) عند صدوره ، الأمر الذي يسّر لي مقاربة شعر الشاعر خلال حقبة زمنية تكفي لمعايشته واستنباط الملامح والخصائص التي ينطوي عليها هذا الشعر. وشعر مثل شعر الفقي يجنح للاستغراق في المضامين الفلسفية ، وينطوي على نزعة تشاؤمية تجسد الصراع بين الوجود والفناء ، يقتضي المواكبة على مدى زمني طويل ، لتتأتى دراسته في روية وأناة ، تقيّض للباحث استنباط الدلالات والمضامين ، التي تمده بها المعايشة والانغماس في مناخه .

ورغم انحيازي إلى جانب النص ، وعدم الاحتفال بالخلفيات والبواعث الكامنة خلف النص ، أو الخارجة عنه إلا بالقدر الذي يضيء جوانب النص ، ويؤازر في استكناه الدلالات ، التي يرمي إليها الشاعر ، إلا أنك أمام شعر محمد حسن فقي تقف أمام إشكالية يولدها التساؤل التالي :

هل الشعر بهيمنته وسلطانه استطاع أن يستحوذ على الشاعر ويصوغه على هذا النحو ، ويحدد مسار حياته وفق ما تمليه مضامين نصوصه .

إن الذي يغرينا ببحث هذه الفرضية أمور عدة ، تتدرج بينها غزارة شعر الشاعر بصورة لم يألفها الأدب العربي من قبل .

حرص الشاعر على أن يغمره شلالُ الشعر ، ويحجبه عن الآخرين ، من خلال ترك منصبه المرموق ليتفرغ للشعر[١١] .

ويفوق ذلك كله ما يحفل به النقد من خلال التركيز على شعر الشاعر في الاستنباط والتحليل ، فقصيدته (أنا والشعر)[١٢] تعد في تصوري أحد المفاتيح التي تمكننا من استكناه واستنطاق مغاليق ذلك النص (محمد حسن فقي) ، ففي استهلالة هذه القصيدة يبدو الشاعر توأم الشعر ، يتقاسمان الأحاسيس والمشاعر ، بل ويقرر الشاعر أنّ جفاف الشعر سيفضي إلى نهايته .

أنا والشعر توأم فإذا جفّ   فليس الحياة هذي بوسعي
كان لي الإلفَ إن تنكر لي الإلـ   فُ وكان الجَبّير في يوم صَدْعي

لما كان توقف الشعر يعني توقف الحياة بالنسبة للشاعر ، جعل منه قلبه الذي ينبض ، وفي ذات الوقت لا زال التوأم الذي يقف إلى جواره ، ويجتاز به كل الهموم والمحن ، والعقل الذي يفكر به :

هو قلبي الذي يجيش بإحْسا   سي وعقلي الذي ينور ربعي
وهو يوم الحرب الضروس إذا اشتدَّ عليَّ الخصومُ سيفي ودرعي
وإذا استشرت الخُطوبُ وأشقتـ   ـني جزاني عن مسٌ ضري بنفعي
الهموم الثقال يجثمن في الصد   ر وينهشنني بأنياب سبع
فيظل الشعر الحنون يواسيـ   ـي ويطوي الجراحَ عن كل ضلع
ويذودُ العيونَ عن دمي الرّا   كي فيغدو المصُونَ عنها ودمعي
كم ليالٍ قضيتها وهو جنبي   مُلْهِماً آسياً .. يُسَكِّنُ روعي

ثم يعمد الشاعر في المقطع الثاني إلى مخاطبة التوأم بالرفيق ، ولا تعارض في تصوري بين أن يكون توأما ورفيقا في ذات الوقت :

كنت أنت الرفيق في الدرب تهديـ   ني لأرقى إلى مدار الكواكب
فإذا أوحشَ المسيرُ تبدّيـ   تَ أنيساً وكنت نعم المصاحب
وإذا أفزع الزئيرُ تصديـ   ت لخوض الوغى تصدى المحارب
المُدى في يديك والترس والنبـ   لُ وسُمْرُ القنا وبيضُ القواضب
فإذا بالأمان يغشى حنايا   ي وأسْرِي فما تخيف الغياهب

ويصل الشاعر في المقطع الثالث إلى ما رمينا إليه من هيمنة روح الشعر على الشاعر ، فيما يضاهي ذروة الحدث الدرامي في العمل القصصي :

أيها الشعر كنت في الحب تمليـ   ـني قريضا تهفو إليه الخرائد

قلن لي مرة وهنّ من الشعـ ... ر سُكارى اشجيتا بالفرائد
كيف تأتي بهن ؟! هل هي أحلا ... مٌ تُواتِي وأنت فوق الوسائد
أم هو الحسن عبقريا فما أعْيـ ... ت عليه الرؤى وغُرُّ المشاهد
لكأنّا بها اللآلئُ تَسبيـ ... نا وتغـري نحورنـا بالقلائد
أنت بالشعر فاتنٌ ليس بالحُسـ ... ن وكم قد فتنتَ شتى النواهد
فترنم لنـا بشعرك واسْعَد ... بهوانا فقـد وقيت المصائد

فلذلك يستعطف الشاعر الشعر في المقطع الرابع ، بأن لا يدعه ويرحل ، فكل مكتسب تأتّي له إنما جناه بقوة الشعر ونفوذه ، وكل معوّق اجتازه إنما اجتازه بسطوة الشـعر ورهبتـه ، وكل جمال استروحه إنما تجلى له من خلال ما صاغتـه أنامل الشـعر ، فـإن أفضى الشـعر إلى زوال فإن حياته ستؤول إلى المحن والزوال .

وكأن هذا المقطع يجسد حل العقدة في الفن القصصي قد صيغ شعراً

أيها الشعر أنت حسبي فكم ذُدْ ... تَ كياني عن الوتى واللغوب
لا تدعني إلى سواك ولا تُشـ ... قِ شعوري ولا النهى بالنضوب
أنت أنقذتني من اليأس والخيـــــبةِ والسير في هجير الدروب
والعقوق الذي استبد فأصلا ... ني جحيماً من الوغى والحروب
أنت أجلستني على القمم الشم ... وقد كنت تائها في السهوب
كنت لي بهجة السرور وما أحـ ... لا رؤاه من بعد طول الغروب
كنت لي الصاحبَ الصدوقَ وكم ضقـ ... ت وروّعْتُ بالقؤول الكذُوب
ولقد عشت من صباي إلى اليو ... م شغوفاً اشتمُّ منك طيوبي
وأرى أنّكَ الحياة فإن ولّتْ ... تولـى تألُّقـــي ووثوبي
لا تذرني إلى شعوب فما يخـ ... لو لنفسي إنْ رحتَ غيرُ شعُوبِ

ثم يفضي الشاعر في خاتمة قصيرة إلى كشف السر الذي تلهث خلف البحث عنه ، والحقيقة التي تتوق إلى معرفتها ، في تبيان هيمنة الشعر على الشاعر ، وتشكيل مسار حياته ، حينما يردد ، وكأنه في لحيظات ذهول عن واقعه :

أتراني كشفت روحي إلى النا	س فبانت سرائري للعيان
أنا هذا ... فالشعر توأم روحي	فإذا راح لم أعد ذا كياني
بعضنا للحياة روح ونبض	شارقا النجم فوق هام الرعان
وكثير منا استام فأهوى	بالذي اختاره إلى القيعان

فإذا لم يكن التسليم بهذا الأمر سهلاً ، فإننا سنلوذ بالاختيار الآخر ، لنضعه أمام أعين الدارسين لشعر الشاعر الفقي ، وهو احتمالية أن يكون الشاعر الفقي باقتداره وتمكنه ، جعل الشعر مطواعاً بين يديه ، يعكس خلجات نفسه ، ويجسد عميق مشاعره ، ويبلور فلسفته من الإنسان خاصة ، والوجود عامة ، ليجعل من الشعر الذي أخلص له ، وتفرغ بالكلية لعالمه ، مضماراً لصراعه مع العدم والفناء ، أمام جمهرة النظارة ، التي يمثلها القراء ، وبذلك نتساءل هل وفّق الشاعر الفقي ، وبشكل نادر ، في تحقيق المعادلتين ، على صعوبة تحقيق أي منهما :

١- غزارة النتاج مع ثبات المستوى والقدرة على بلورة مكنونات النفس .

٢- هيمنة الشاعر على الشعر في تطويعه لأغراضه وفلسفته وبث خلجات مشاعره .

ويظل التساؤل يتنامى مع الانغماس في الولوج إلى عالم الفقي الشعري ، والذي يمكن أن نحدده ضمن خط بياني ، يؤاز في ايضاح المعالم الأساسية لمسار شعره ، والمتمثل في ..

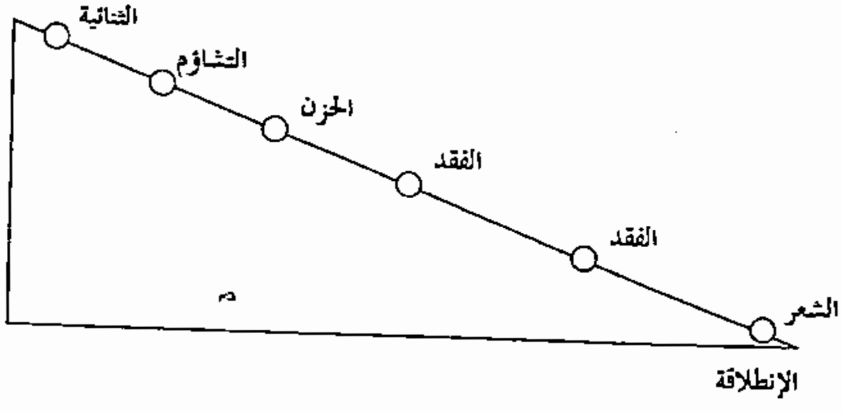

من المسلمات ان انتقاء عنوان القصيدة ، أو العمل ، عملية عقلية ، تنطوي على بُعد تندي ، وليس من المصادفة أن يكون الديوان الأول لشاعرنا (قدر ورحل) ، هو العمل الوحيد من أعماله ، الذي يحمل عنواناً له دلالة ، وهو يكشف عن حالة الصراع التي يعيشها الشاعر مع القدر ، وهي الخطوة الأولى التي اقتضت استمرار هذا الصراع ، وتناميه ، ليتبلور إلى منحى فلسفي ، ونزعة تشاؤمية ، ولعل القصيدة الأولى في الديوان (من أنا)(١٣) تجسد (عبثية)(١٤) هذا الصراع ، وعدم تكافؤه ، فهي تشكل نقطة الدخول في دوامة الحيرة ، وغابة علامات الاستفهام ، وتشف عما تستبطنه النفس من أسئلة ، يؤكد ذلك اندراج هذه القصيدة ضمن مجموعة تحمل عنوان (من أغوار النفس) .

وزوبعة الحيرة التي تعصف بذهن الشاعر في هذه القصيدة ، قادت الدكتور عمر الساسي إلى عزو ذلك إلى تأثر الشاعر بشعراء المهجر (ومحمد حسن فقي لا يختلف عن أنداده من شعراء جيله ، من أبناء الحجاز ومكة بصفة خاصة في التأثر بشعراء المهجر ، وعلى وجه الخصوص بإيليا أبي ماضي في شعره الفلسفي وفي تساؤله عن سر وجوده مثل قوله :

من أنا ؟! هل أنا غير طيف شاهدته أحلام هذا الوجود ؟!
شفّ عنه الكرى .. وضيعه الصحو .. وأخفاه عن عيون الشهود !
أنا مثل الألوف في هذه الأرض .. رسيف ما بين شتى القيود
أيهذى السدود .. هل نصرم العمر هباء .. ونحن خلف السدود(١٥))

ويخيل إليّ أن الشاعر حاول الإستفادة من تطبيق فكرة (الحلول) عند الصوفية ، وتوظيفها شعرياً ، خاصة وأنه قد استهل قصيدته من عالم الماورائيات ، ومن الأزل ، الذي لا يدرك بدؤه ولا انتهاؤه :

منذ عهد من الزمان بعيد لست أدري عن بدئه وانتهائه

ثم استحال إلى طير يحظى بالحرية ، ويهنأ بالرفرفة فوق فننه !

كنت طيراً مرفرفاً فوق غصن مائس باخضـراره وروائه

ويتحول في كل مقطع من القصيدة إلى شيء آخر ، مراوحاً من عالم الحياة الذي يجسده الطير ، إلى عالم النبات التي تجسدها الوردة .

فتحولت وردة – وتبرأت من الشوك في الربيع الخصيب

ثم يتحول إلى غدير ، ومنه إلى دوحة ، وأخيراً إلى عالم الجماد ، إلى صخرة في جبال شاهقات تهيم فيها الوحوش ، إلى أن ينتهي إلى التسليم بإحساسه بغربته ، بين أبناء جنسه :

يا غريباً عن الديار عن الناس عن الخلق كلهم أجمعينا
يا وحيداً طوى السنين فراضته وما استطاع أن يُروض السنينا

ويذهب عبدالعزيز الربيع إلى أن (الخطوط العريضة للقصيدة تشكل لنا في مجموعها ملامح إنسان يشعر بغربته بين بني جنسه ، ملامح إنسان حائر متشكك ، لم يزده اقترابه من الناس إلا بُعداً عنهم)[١٦] .

بينما يقترب الدكتور الحامد من جوهر هذه القصيدة دون أن يلامسه ، ويصل إلى حقيقة تفسيرها ، إذ لم تزد في تصوره عن (خيال طريف لطيف يذكرنا ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب الفيلسوف اليوناني (إمْبِذُقْلَ) في نشأة الكون ، والمذاهب الهندية في التقمص (التجسد) والتناسخ بل إنه أقرب إلى الأسطورة الفارسية (مولد زرادشت)[١٧] .

ولا نرى أن القصيدة تستدعي كل هذا الضرب من التوزع والشتات ، وإنما تعكس ببساطة ثقافة الشاعر الصوفية ، والإستفادة في توظيفها شعرياً ، باستغلال مفهوم الحلول ، ذلك الحلول الذي يمكن تحديده من خلال المقارنة بالإتحاد (وفرق ما بين الإتحادي والحلولي كفرق ما بين القائل بأن حقيقتين اتحدت إحداهما بالأخرى فصارتا حقيقة واحدة ، وبين القائل بأن حقيقة حلّت في حقيقة أخرى فاتحدتا دون أن تمتزج إحداهما بالأخرى أو تستحيل إحداهما إلى الأخرى ، بل إن كلا منهما ما تزال محتفظة بطبيعتها ، فهما ما تزالان حقيقتين على الرغم من هذا الحلول)[١٨] .

فالشاعر كان ينفث أحاسيسه ومشاعره ، من خلال كل نموذج تحوّل إليه ، ليقطع رحلته في دائرة انتهت به إلى حيث ما استهل .

ووقوفنا على هذا القصيدة بشيء من الإسهاب والإستفاضة ، إنما يبرره وقوف الدارسين طويلاً أمام هذه القصيدة . كما أنها أولى قصائد ديوانه (قدر ورجل) ، وتكشف عن أولى الدرامات التي اعترت الشاعر ، وأفضت به إلى عوالم الحيرة والضبابية .

وشاعر تطوح به الحيرة وهو يدلف إلى عالم الشعر ، ثم تتعاقب عليه المحن ، لابد وأن تنتهي به إلى نهاية فلسفية عميقة ، ندع للسطور التدرج معها ، كما يحدد الرسم البياني المستقى والمستنبط من شعره .

الفقد

يعد الفقد أكثر العناصر النفسية تأثيراً في عمق الشاعر ، وأكثر المحطات تكراراً وتوالياً في حياته ، وأكثر المعاني تفشياً في شعره .

وبوسعنا أن ننظر إلى الفقد في شعر الشاعر على أنه كتلة واحدة كالنيزك ، ونحن نلمس اشعاعاته تسللت إلى جل قصائد الشاعر ، وخيمت ظلال الموت على مناخات قصائده ، وبوسعنا أيضاً أن ننظر إلى الفقد على أنه نيزك ، توزع إلى شظايا ، ووفق هذا التقسيم ، تمثل الشظية الأولى منه فقد الأب ، وهو حدث قد يبدو نمطياً وفق قوانين الحياة ، فدنو الأجل مرتبط بتقادم سني العمر ، إلا أن فداحته أنه وقع على نفس مرهفة ، ذوبها الشعر عاطفة ورقة ، كما أنه وقع في سن يتطلع فيها الشاعر إلى الحياة كأترابه بأمل وعنفوان ، فكان الإنكسار الأول في هذه العاطفي على صخرة (القدر) الذي يواجهه هذا (الرجل) وحيداً ، ولذلك يصوره الشاعر في ترجمته لحياته تحت عنوان (الفجيعة في الأب) ، ولرهافة حس الشاعر في تحمل هول الكارثة ، وقف الشاعر أمام هذا الفصل وقفة تفوق الوقوف أمام فصول حياته الأخرى ، على الرغم من أنه (موت) ، أي حادثة عابرة ، ونمطية ، في حياة الأفراد ، وحياة الشاعر تزخر بالكثير من الأحداث الهامة ، التي تستوجب الإطالة والإسهاب ، ولكن تفسير ذلك يكمن في مواجهة نفس مرهفة ، وشاعر لخطب جلل ، ولنصغ للشاعر وهو يصور هذا (الحدث الأكبر الذي ضعضع كيانه وضاعف من تسخطه على الحياة وبرمه بها ونقمته على الناس ونفوره منهم .. كانت المصائب تتوالى تترى عليه وتتحالف فمات عدد عديد من أهله أمامه وكان كل راحل منهم يخلف في نفسه مضاضة وحسرة وذعراً . أما مصيبة المصائب فكانت موت أبيه الذي كان ملاذه في الحياة بموتاً يكاد يكون مفاجئاً . ففي مساء يوم استدعاه أبوه إليه ودعا له بخير وأعطاه تعويذة قرآنية كان أسلافه يتوارثونها جيلاً بعد جيل تبركاً بها واستجلاباً للسعادة والأمان ثم أوصاه بإخوته خيراً وقال : إنه يشعر بترعك بسيط وارتفاع في الحرارة ولذلك فسينام مبكراً ليرتاح وتهبط حرارته .

وفي الصباح قام الأب كعادته قيام الطير وصلى الصبح والسماء ما تزال مزدانة بمصابيحها وأضواء الفجر تصارع أسداف الليل والعصافير تغرد بترانيمها الرخيمة كأنها أغنيات حلوة مطربة ثم أيقظ أهل الدار فصلوا وأمر بطعام الإفطار فجهز ، فلما أكلوا طلب إلى ابنه أن يذهب إلى المدرسة لمناسبة سنوية فيها الحضور الباكر ...

وذهب الفتى وشارك في المناسبة السعيدة فلما انتهت وكان الوقت ضحى وقف في الروش يطل على الشارع العام ويتلهى بمناظر المارة وهو يحس بانقباض لا يعرف مأتاه وإذا بجار لهم يغذ في المشي وهو مضطرب فلما وقعت عينه عليه هتف به أن ينزل وأخذ بيده وسار معجلاً فسأله وهو مشدوه عن السبب وقد تحركت النذر الرهيبة في صدره -فطمأنه- وقال له : إن والدك يشكو ألماً بسيطاً وقد ندبني لاستدعائك إليه فلا ترع .

ووصلوا إلى الدار وقابلهم في درجاته رهط من الأطباء بوجوه مغبرة كامدة وهم يهبطون كأنما يفرون من الدار فراراً .

وطارت نفس الفتى شعاعاً وكأنما إلهامٌ إليه بالكارثة فأنّ أنيناً مذبوحاً وصعد إلى غرفة أبيه بأرجل متثاقلة وكأنه شبح يتحرك . وكان أبوه قد فارق هذا العالم إلى عالم أنقى وأطهر وأكرم منذ دقائق معدودات وكان جثمانه مايزال حاراً كأن الروح لم تفارقه بعد ...

ولم يسأل الفتى ولم يبك بل وقف أمام الجنازة كما يقف العابد المتبتل في محراب مقدس.. وقف في خشوع مهيب وفجيعة قتّالة وكأنه التمثال لا يريم من مكانه .. وكفّ إخوته وأهله عن الولولة والبكاء فقد راعهم هذا الفتى الذي حطمته النكبة وخافوا عليه أن يهلك فتكون مصيبتهم مصيبتين .

إن الرزء الفادح إذا نزل فلا نجاة منه إلا بالدموع .. إنها رحمة عظمى على المنكوبين تخفف كروبهم وتلطف آلامهم وترخي من توتر أعصابهم .

وتحلّق الناكلون حول الثاكل يواسونه وهو لا يعي ما يقولون وصرخت شقيقة له وقد هالها سكونه المخيف ووجهه الكالح ومآقيه المتحجرة ونظراته المتبلدة .

وانصرف الناس عن الميت إلى الحي يلغطون ويرثون بهمهمات باكية ، وأدركت الفتى رحمة من الله فراح في غيبوبة راحنة مستسلمة .

وجاء الطبيب ولم يرد جثمان الميت -وكان طبيباً حاذقاً له بعلم النفس إلمام- قال -بعد الفحص والمناشلة- : إن الفتى لا يحتاج إلى عقاقيري وإنما يحتاج إلى عقاقير من صيدلته هو .. إنه يحتاج إلى البكاء الناشج المستخرط .. إن أعصابه كأوتار مشدودة -لابُد لها أن تسترخي وإلاّ حل بجسمه وعقله بلاء جسيم أعينوه على البكاء فإن بكى كانت الدموع له عاصماً مما يستهدف له من خطر إذا هو لم يبك ، ليس له عندي دواء إلا هذا فأسعفوه وانبئوني خبره بعد حين .

ومضى الطبيب لطيته وابتهل في خضوع إلى الله أن ينقذ الفتى واستجابت رحمة الله كرّة أخرى فانجابت عن الفتى غيبوبته ولانت محاجره ودرت شجونه .

كان يبكي بكاءً صامتاً ينفذ إلى أعمق أعماق القلوب فيهزها هزاً عنيفاً .. وتحامل على جسمه الناحل المتداعي فقام وكأنما خرج من قبر .. أصفر صفرة ورق الخريف .. متأرجحاً مبهوراً .

كان الغاسل قد انتهى من غسل أبيه وتكفينه وتجهيزه للدفن ، فدلف إليه وانكب عليه يلثمه ويغسل أطرافه بالدموع

لك الله أيتها الدموع من غسول طهور ...

قال الفتى لصديق له بعد سنوات من الفاجعة -لقد سرت وراء نعش أبي وأنا لا أحس بمن حولي وما كنت أدري متى وصلت .

ونزل بعض أقارب إبي وأصدقائه إلى القبر وقيل إنهم خافوا عليَّ من المضاعفات فلم ينزلوني معهم لألقي عليه النظرة الأخيرة .

وواروه التراب وانصرفوا عنه إلى العزاء ووقفت معهم حتى انتهت مراسمه وعدنا إلى الدار القاتمة المنتحبة التي فقدت ربها وأصبحت لا تضم إلا فتى لم يتعد السادسة عشرة وشقيقات له يكبرنه كثيراً في العمر فهن له بمثابة الأمهات .. ثم بعضاً من الخدم .

وصرمت الدار ثلاثة أيام نحسات كان المعزون خلالها يفدون إليها زرافات ووحدانا يؤدون طقوساً من العزاء الممثل في كلمات عطوفة مواسية ما تفعل في النفوس الكليلة أكثر من عرفان الجميل ، ومرت بعدها أيام خفّت فيها اللوعة قليلاً من كل القلوب إلا قلب الفتى الولوع)[١٩] .

ورغم أن هذه الفاجعة خلفت أثراً عميقاً في نفس مرهفة ، إلا أن الشاعر الذي لم يتجاوز السادسة عشرة ، قد ألجمته الكارثة عن رثاء أبيه ، ولعله إكباراً لمكانة الأب ، لم يشأ لشاعريته أن تفصح عن رثاء ، لا يتساوى مع مكانة أبيه في نفسه ، فجاء ديوانه الأول قدر ورجل غفلا من رثاء أبيه ، وان انسحبت ظلال الحزن على قصائده ، وبدا على شعره استهلال ظهور الثنائيات ، سواء في صورة بلاغية ، كطباق ومقابلة ، أو في صورة فكرية ، تعتمد على المقارنة والتحليل ، كقولة في المطابقة بين الرقم والصفر ، والنحاس والتبر :

اثرت رقما فاستحال الرقم في كفيَّ صِفْرا
يا ويحه هلا استحال نحاسه في الكفِّ تبرا
نسي المواجد من رأى في أهلها لبا وصهرا[٢٠]

أو تصوير ما يعتري النفس الطموحة من إحباط ، مفضياً إلى عقد مقارنات ، تنطوي على مقابلات وطباقات بديعية ، تجذرت في نفس الشاعر ، واستدعتها تلك الصور المتناقضة التي تمر بها عين الشاعر في الحياة ، وهو يرى تسامي من لا يستحق ، وتواضع من يستحق :

ما الذي فيك أيها الروح يقصيـ ... ـك ويدني إلى السمو اللئاما
أنت عملاقةٌ فلا تمنحي الود ... إذا ما منحته الأقزاما
إن أنفاسهم يضايقها العطـ ... ـر فكوني ضنينة بالخزامى
لا تضيقي بهم فمن صرم العمـ ... ـر الخطاطا يخاف أن يتسامى
هو لغز منذ الخليقة ما انحـ ... ـل وما زال يعجز الإفهاما
وهو سر الألى جفوكِ وقد كا ... ن صَغاراً جفاؤهم وأثاما
ما الذي فيك غير ما يحسد النا ... س صفاءً وطيبةً وتماما

لستِ في غربة فما تعرف الغر — بةَ روحٌ تفجــرت أنغاما
لستِ في وحشة فما تعرف الوحـ — شـةَ روحٌ تمثلــت أقلاما
أنتِ دنيا حفيلة بالفرادي — س تناهت حُسْنَاً وطابت مقاما
لن تُراعي بغربةٍ – أيها الرو — ح – إذا كنتِ تمتطين الغماما
أو تعاني ندامة من تجافيـ — ـهم فهم سوف يصبحون الندامى
قد يكون اللظـى على الروح برداً — ويكون الفردوس منها انتقاما
حينما يصبح السمو اتهاما — يصبح الناس كلهم أنعاما [٢١]

على أن معاناة الشاعر الحقيقية تفجرت ، حينما ارتطم الشـاعر بعنف ، بكارثة الفقـد المتكررة ، والمتمثلة في وفاة ابنه ، ووفاة ابنته ، بعد أن رأى فيهما كل المخايل التي كـان يتـوق إليها ، وارتبط بهما ارتباطاً نفسياً وعاطفياً ، فكان لهذين الخطبين المتقاربين زمناً ، أثـر عميـق نكأ الجراح القديمة ، بل وزاد في عمقها واتساعها ، بعد أن أقصاه الزمن عن فقد أبيه ، وكـاد ينسيه تباعد الأيام ذلك الحدث ، ولكن صمت الزمن لم يكـن إلا الهـدوء الـذي يسبق العاصفـة ، فعاد ليفجعه بفقد ابنه ، ثم أثخن في جراحه ، ليتبع ذلك بفقـد ابنتـه ، وتفجـر ينبـوع الشعر مضمخاً بالألم ، وهو يرثي ابنه الذي مات في غربته[٢٢] :

هو جرح غائر في كبدي — ليس تشفيه عقاقير الدُّنا
تازف تسمع منه أذني — صرخة المذبوح تشكو الزمنا
صرخة المذبوح يدري أنه — نزل القبر وضمّ الكفنا
لتمنيت وقـــد أثكلني — أنني فدّيته ... لو أمكنا
وتمنيت وهل تجدي المنى — أن يكون الموت من حظي أنا
قال لي الأهلون والصحب لقد — كدت أن تهلك فيه حزنا
كلما مرت على فقدانه — ساعة زادتك شجواً وضنا
قلتم الحق الذي لا امتري — فيه لكن كيف لي أن أُذْعِنا ؟
جذوة النار التي ترعى الحشا — لم تدع صبري عليه هيّنا

أحرقت في باطني حلو الرؤى وأرتني عالمي مستهجنا
قد رضيت الشيء من حـر اللظى وجنيت المرّ من حلو الجنى

ثم يردف هذه القصيدة بأخرى ، تنطوي على تفصيل وإشارات إلى موته في الغربة ، وقد كان تواقاً إلى العودة لوطنه ، ولعله استأذن أباه في ذلك ، وندمه على عدم الإستجابة لهذا المطلب ، ويبين فيها الشاعر خصال ابنه الشاب ، وما انطوت عليه نفسه من فرح وسخرية من الحياة (٢٢)

لقد حيل ما بيني وبين لقائه كما حيل ما بين الضنا وشفائه
أيا راحلاً عنّا وفي جنباته حنين إلى أرض الحمى وسمائه
يحن إليه والحوائل جمة فيصبر صبر المستكين لدائه
تقول: أبي هل لي إلى الدار رجعة فإني بهذي الدار أضيع تائه
أبي : إن في عيشي بجنبك متعة فبعض الفلا يوحي لنا بروائه
فأبكي بلا دمع على شقوة المنى إذا اعتقت من تكتويّ بعدائه
كأني به يخشى المنية في غد ويحذرها في صبحه ومسائه
كأني به يطوي على الغيب نفسه فيعرفُ مالم يَبْدُ لي من قضائه
وربما تهدي القلوب لمنطق ويسبقها فيه سريع البدائه

إلى أن يجسد الشاعر ندمه على عدم إجابة ابنه لطلبه بقوله :

فياليتني كنت استجبت لمطلب حبيب وتحيتُ الفتى عن بلائه
حشاشة نفسي وهي في القبر جثة سقاها السحاب الجون أعذب مائه
ووشّى الربيع الطلق وشياً منمنماً عليها وغطاها بحلو ردائه
ألم يك فوق الأرض روحاً مرفرفاً برغم الأسى حينا برغم شقائه
تُنيخُ عليه الحادثات .. وتنتهي وما تكشف العينان عن بُرحائه
يكايدها بالسخر حتى يردها تَميّز غيظاً من عظيم اجترائه

وبعد أن يستطرد الشاعر في وصف خلال وخصال المرثي ، من جود ، ونبل ، وكرم ، وبر بأبيه ، وأقربائه ، ينبري لتجسيد ما يعتمل في دخيلته ، حيال هذا الفقد المؤلم :

أحس لهيب النار بين أضالعي وأشعر أني منتهٍ بانتهائه
أبعد الشباب الغض ألقاه هامداً وقد ضرّجت أكفانه بدمائه
فلو أنني خُيِّرتُ لاخترت دونه ردای قريراً هانئاً بفدائه
ولكنها الأقدار هذا دواؤه يميت .. وهذا لا يموت بدائه
وهذا عجوز ضائق من بقائه وهذا فتيٌّ جازع من فنائه
فسبحان ربي في رخاء وشدة وسبحانه في منعه وعطائه

ولما كانت المصائب لا تأتي فرادى في بعض الأحايين ، فإن ثالثة الأثافي التي هيأت للشاعر أتون الاصطلاء بنار الفقد ، تجسدت في موت ابنته بداء عضال ، وهي الأخرى في ميعة شبابها ، ولكن موتها قد أتى وقد أثخنها الألم ، وأثخنت نفس أبيها الكوارث ، فكأنه ألف الألم ، واطمأن إليه ، ولم يشأ لها أن تقع فريسته ، فلذلك سخا بها على الموت ، كما يقول (٢٤) :

سخوت بها على ريب المنون لما قاسته من ألم طحون
لقد قاست من الآلام مالم يقاس المستوون على أتون
أجوهرتي التي كانت فتونا ولألاء تُدِلُّ على الغصون
لقد عصفت بك الدنيا فأبكت عليك توجعاً كل العيون

وإذا كان صغر السن لم يسعف الشاعر في رثاء أبيه ، فلقد أتى موت ابنه وابنته متتابعاً ، وهو في ذروة توهجه الشعري ، فرثى كل منهما على انفراد ، ورثاهما معاً ، مثلما أهداهما ديوان الرباعيات معاً ، مشيراً إلى أنهما (انتقلا إلى الرفيق الأعلى وهما في ميعة الشباب فاحتسبتهما عند الله الكريم) وقال في رثائهما ، في قصيدة أشلاء متناثرة (٢٥) :

أبُنَيَّتي وبُنَيَّ .. هل أنا ظافر بعد الردى منكم بوشك لقاء
فارقتماني فاللظى في مهجتي يرعى ويستعصي على الإطفاء

إلى أن يصور ألمه لفراقهما ، وتطلعه للقائهما :

إثنان قد رحلا وكانا واحة ... للنفس تبردُها من الرمضاء
بثمارها وزهورهـا وعيونها ... أنا ساكن في الجنة الفيحاء
أشقى الأنامِ إذا استظل ظلالها ... يغدو بها من أسعد السعداء
أرحلتما حقاً ؟ وهل أنا عاجز ... ككليكما عن فرحة وبكاء
عن فرحة يلقاكما ؟ عن دمعةٍ لنواكما ؟ عن عصمة وفداء
عن فرحة الأبناء حين تهزهم ... أشواقهم ؟ عن فرحة الآباء
ما هذه الدنيا سوى أمثولةٍ ... لو أننا كنا من الحكماء
ليت الذي منح الحياة لمهجتي ... جعل الرحيل متى أردتُ جزائي
أنا بالمباهج قد برمتُ لخشيتي ... سوء المصير وليس بالإرزاء

الحزن

لا يتأتى لشاعر تعتري حياته مثل هذه الفواجع من فقد الأب في السادسة عشرة ، وفقد الإبن وهو في ميعة الشباب ، وفقد ابنته الحانية بعد صراع مرير مع الألم والمرض ، أن يكون بمنأى عن الحزن .

فغلالة الحزن التي تغلف قصائد الشاعر ، تمثل محصلة طبيعية لما عانته هذه النفس المرهفة من ضروب المحن ، وصنوف العذاب ، وهذا ما يفسر اكتساح الحزن ، واحتلاله لمواضع الإشراق والتفاؤل في حياة الشاعر ، فرغم أن الميلاد يمثل إشراقة الحياة ، وبزوغ فجر جديد ، ضهرانطلاقة وتوثب نحو الحياة ، نجد الشاعر في ترجمته لحياته ، يصف ميلاده بأنه حزين ، ولكن أكثر دقة وتحديداً ، فنذكر بأنه جعل عنوان هذا الفصل ، وهو أول فصل من فصول ترجمته لحياته (ميلاد حزين)(٢٦) .

ولندع الشاعر يصور لنا ذلك الميلاد ، وما واكبه من مؤثرات : (في ليلة حالكة الظلام طمست السحب المتكاثفة فيها معالم النجوم . وقعقع الرعد بين جوانبها قعقعة مخيفة تصم الاذان ... وخطف البرق خطفاً دراكاً لا تقوى على مواجهته الأبصار وعصفت الريح عصفاً مرعباً يهز المنازل والأكواخ .. وفتحت السماء أبوابها بماء كأفواه القرب سالت منه الأودية والبطاح واقفرت الطرق من المارة حتى ليحسب الناظر أنها بلدة غير معمورة بسكان .. كانت البلدة قطعة ملتفة بالسواد الدجوي تضيء بين الفترة والفترة بلمع البرق ثم يعود إلى سوادها الحزين .

وكان الناظر من بعيد لا يلمح نوراً واحداً من نوافذ المنازل التي أوصدها أهلها اتقاء للريح العاصف والمطر المتهاطل والبرق الذي يخطف الأبصار .

في تلك الليلة التي تجلت فيها الطبيعة بأقسى مظاهر سطوتها وجبروتها وفزع الناس إلى بيوتهم لاهثين وجلين .. كانت امرأة مسكينة تعاني آلام المخاض الموجعة ، كان حولها ثلة من الصبية والنساء يرقبون الوليد المرتجى ويتوجعون للنفساء التي تعسر عليها الحمل وأنهكتها

مراجعه وهي صابرة مستسلمة لقدرها لا تتوجع إلاّ في همس كي لا تزعج من حولها بالهلع والعويل)

والشاعر الذي يكتب ترجمة حياته ، في مرحلة متأخرة فيما يبدو ، ولم يتابع تدوين سيرة حياته من البدء ، لم ير الليلة تلك كسائر الليالي مظلمة ، وإنما يصفها بأنها حالكة الظلام ، ويبالغ في اسباغ صفات الرعب على الرعد ، باستخدام الفعل الرباعي (قعقع) المتكرر الأصوات ، ويردفه بالمفعول المطلق (قعقعة) المبين لنوع عامله ، ويصف هذه القعقعة بأنها مخيفة ، ولم ير في ما انهمر من السماء (مطراً) أو (غيثاً) أو (رحمة) ، وإنما (فتحت السماء أبوابها بماء كأفواه القرب) وكل تلك السّمات والصفات ، صوّر بها الشاعر تلك الليلة ، وهو يقف عن بُعد ، بعد أن تجلت له وقائع حياته ، فلم يعد يرى فيها إلا كل مرعب ومخيف ، ولم يكن بدعاً أن يتأثر الشاعر بموقف أبي العلاء المعري ، حينما أوصى بالكتابة على قبره

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيت على أحد [٢٧]

فتابعه في هذه النظرة التشاؤمية ، التي تتساوق مع هذا الموقف ، الذي يصور ميلاده ، حينما قال في قصيدته (الراحلون والمتخلّف)[٢٨] :

لعذِّبْتُ مرتين فقد كنت وما شئت .. ثم عشتُ شقيًّا
إن صُلْباً ومَهْبلاً أتيا بي أتيا —جاهلين— أمراً فريّاً
لو يكونان يعلمان لقالا حَسْبُنا العُقْمُ بكرةً وعَشيًّا
وأطاعا نوازع الخير لكنَّ قضائي قد كان فيَّ عصيًّا

فالحزن لدى الشاعر الفقي

١- نزعة عقلية

٢- وصبغة عاطفية

ونعني بالنزعة العقلية : هيمنته على الجانب العقلي ، فاختيار عناوين القصائد ، عملية نقدية عقلية لا تتصل بإبداع القصيدة . وإنما تأتي تالية لها ، وإذا قمنا بمسح سريع لعناوين

بعض قصائده ، نجد دلالات الحزن تسود جل تلك العناوين ، ففي المجلد الأول الذي يحتوي على (الإسلاميات) و (القوميات والوطنيات) و (إيحاءات وسبحات) و (تجليات روحانية) و (عرب وعروبة) و (آراء في السياسة والمجتمع العربي) وهي أبواب تندرج تحتها موضوعات لا تستدعي الحزن . نجد أن الحزن قد تسلل إلى عناوين بعض القصائد مثل (فلسطين الدامية) (الهول المخرس) (الوحدة) (إني غريب) (زفرات) (حيرة نفس) (يا دنيا) (الناس والخلق) (يقظة الخطيئة) (البلبل المذعور) (رفات يتكلم) (سراب) (رجفة) (العدم والأمل) (جحيم النفس) (نفس تبحث عن نورها) (المصابيح الزرق) (وميض في الظلام) (القدر والخلود) (طرق النجاة) (الحلم الشرود) (ثمن النكسة) (محنة العروبة) (حرة ثارت) (جراح تصيح) (صرخة)

وإذا كانت هذه العناوين قد تفشت في مجلد يضم بين دفتيه موضوعات دينية وقومية ووطنية ، فتفشي هذه العناوين الدالة على الحزن في بقية الأعمال ، خاصة ما يتصل منها بالجانب العاطفي ، أدعى وأولى .

وأما كون الحزن لدى الشاعر الفقي صبغة عاطفية ، فإننا نقصد بذلك ، أن الحقل الدلالي التي ترتع فيه شاعرية الفقي ، هو الحزن ، فلو قيض لدراسة احصائية حصر معجم الشاعر الفقي ، فلربما وقفنا على نسبة ألفاظ الحزن في معجم الشاعر ، فكل من يتصفح ديوانه ، أو أعماله ، تطالعه مفردات الحزن وقد افترشت جل قصائده ، فإذا كانت مبثوثة في قصائد التأمل والنزعة الفلسفية كقوله(٢٩) :

يحيرني رشدي وغيي فأنثني	شقيا بفردوسي شقيا بنيراني
فألفُ ملاك في حناياي جُثَّمٌ	وفيها ولم أطردهمو ألف شيطاني
كلا اثنيهما يُغري وينصح آثما	فيسمو إلى أوْجٍ ويهوى لقيعاني
فهل أسلك الدرب السويَّ ولو سطت	عليّ همومٌ من أفاعٍ وذؤبان
وإلاّ فإني تائهٌ في مفازة	أهيم وأحيا بينها اللاغبَ الواني
لغيتُ وما أدري أألقى ضلالتي	بعُقباي.. أم رشدي فقد ضاق وجداني

وناديت في الظلماء أشكو عمايتي | لعلي أرى ومضاً يضيء لِغَيّاني
فقد زهدت نفـي الغواية بعدما | أضعت بها مجدي الأثيلَ وغُنياني
وطالعني الاثمُ الويلُ بسَحْنَةٍ | تخيفُ فما كانت بسحنة إنسان
بلى إنها كانت وراء قناعها | بحورٍ تمّنيني -يَمسْنَ- وولدان
وما كان إلاّ شرُّ قبحٍ وراءها | ولكنه أغرى بزور وبُهتان
فهل ندمي يُغني .. وهيهات إنه | يذيب ويشقيني بما كان أولاني

فلقد تضمن البيت الأول من هذه المقطوعة فقط الفاظ (الحيرة) و (الغي) و (الانتشاء) و (الشقاء) متكرراً ، ثم ختمها (بالنيران) بصيغة الجمع لا الإفراد . وفي البيت الثاني يعربد ألف شيطان طليق ، بإزاء ألف ملاك جاثم مستكين ، وهكذا .

على أن دلالات الحزن والفاظه ، لم تقتصر على شعره التأملي والفلسفي ، وإنما امتدت لتصل إلى قصائده الغزلة والعاطفية ، ليصبح الحزن غلالة تغطي جل نتاجه ، ففي قصيدته الغزلة (حوار)[٣٠] التي يستهلها بقوله :

لستُ أدري ماذا أريد فكوني | أنت هذا الهوى وكوني شجوني
أنا إن شئت كنتُ صبا رهينا | وإذا شئت لم أكن بالرهين

يعبّر في المقطع الثاني على لسان (هند) عن هذه الجراح التي أحكمت قيدها حوله فأضحت له سجناً وحوله طوقا :

فاستوت هند في النديّ وقالت | وهي تبكي ماذا اعتراك فأشقى
أنت تشكو من الجراح وما أدْ | ري فويلي إذا استمحتُك عشقا
هذه . هذه الجراحُ اضلـ | ك وكانت سجنا عليك وطوقا

ولم يكتف الشاعر بأن يجعل نفسه أسير الحزن والمعاناة ، فيعمد إلى إسقاط تلك الصفات على محبوبته ، وكأنه أضحى يتلذذ بالألم والمعاناة فيسبغه على الآخرين :

وأنا ما الذي اقترفتُ فأصْلَيـ | ت بنار المقالِ فِكري وحسي

كنتُ أهواك لا لمجدٍ ومالٍ   بل لأني أراك توأمَ نفسي

لذلك نجده في المقطع الرابع ، وقد عصفت به الحيرة ، وطوّحت به في دوامتها مترنحا بين الأسى والأسف :

قلتُ ندمان الأسى يلسعُ الرو   حَ بسوط تنزُّ منه الدماء
أنا في حيرة فقد فاض بالهجـ   ـر مقالي وضلَّ عنه الحياء
فاعذريني فقد لقيت من الغيـ   ـد بلاءً يضيق منه البلاء
فتنكرتُ للحياة وأهليـ   ـها جميعاً وقلتُ كيف النجاء
وتخيلتُني جريحاً بجرح   ضقت ذرعاً به وعز الشفاءُ
وتصورت أن حواء شيطا   نٌ طوتني غيومه السوداء
أفلا تعذرين أيتها الحلـ   ـوةُ قلبا جنت عليه النساء

ولذلك نستخلص مما مضى أن الحزن أصيل ، متجذر في نفس الشاعر ، كنتيجة طبيعية لتراكمات المعاناة ، من فقدٍ وسواه ، وخيّم هذا الحزن على مشاعر الشاعر وشعره ، وليس مستمداً من الجماعة المهجرية ، وخاصة أبي ماضي ، كما ذهب إلى ذلك البعض (٢١) .

إن تيار الفقد العاتي ، وموجة الحزن الطاغي ، لابد وأن يصبّا في نهر التشاؤم لذلك لا نرى في شعر الشاعر ، ما يعبّر عن تفاؤل وأمل ، وتطلع للحياة ، بل نجده عزوفاً عنها ، غير مطمئن لها ، ولا لمن يعيش بين أكنافها ، فلقد أدار لها ظهره بعد أن ذاق من ويلاتها ما ذاق[٣٢] :

أجرعت من ماء الحياة ؟! وكيف لي ... يا صاحبي من مائها أن أجرعا
ما استسيغ من المناهل مشربا ... أو أستسيغُ من المخاضِرِ مرتعا
ألف المرارة من تعود حلقه ... إن لم تبل صداهُ أن يتوجعا
عفت الغدير –وما يعاف– لأنني ... حاولتُ شربَ غيره فتمنعا

ولذلك كان الشاعر يتوق للتواري عن الناس ، والإعتزال عن عالمهم ، حيث يقول[٣٣] :

جئتُ من عالمي المحجّب لا أدري لمــاذا ؟ وسوف أمضي لمثله
ولقد عشــت في الحيــاة غريبــاً .. مستريبــا بعلمــه وبجهله
قد جنى حســه عليه .. فمــا كان سعيــداً بحســه أو بعقله
أفلم يقصيــاه عن عالــم النــاس ؟! ألم يقضيــا عليــه بعزله

وفلسفة الفقي وتشاؤمه بدأت لديه بتساوي الأضداد ، وتماثل النقيضين ، حتى تلاشى الفرق لديه بين السعد والنحس ، والسرور والألم[٣٤] :

وعلمني سخر المقادير .. أننا ... ضحايا المآسي أو ضحايا المهازل
وأنّ نعيق البوم شكوى حزينة ... إلى ربّها من طيب شدو البلابل
ففيم بزيف النحس يبدو تشاؤمي ... وفيم بزيف السعد يبدو تفاؤلي

وإذا كان الشعر العربي انحاز للمرأة ، ولهث الحرف خلفها استعطافا واستجداء ، وكانت في قوافي الشعراء تمثل الزهرة التي يتوق الشعراء إلى استنشاق عبيرها ، والإستمتاع بمنظرها وشذاها ، فإنها وفق منظور الفقي وفلسفته ، في انطلاقتها الأولى ، تمثل طرفي النقيض ، فليست خيراً مطلقاً ، أو شرّا مطلقا[٣٥]

ليس كل الحسان يعبث بالقلـ ... ب ويتركن ماءه العذب رنقا
لا ولا كلهن يطربنَ للجَرْ ... ح فينكأنـه ليـزداد عمقا
إن فيهن علقمـا وفُراتا ... فتخيّـر منهن أكرم مسقى

ثم تتنامى هذه النزعة التشاؤمية ، لتتحول مع تناميه حواء إلى شيطان ، يخشى أذاه ويهاب بلاءه (٣٦) :

فاعذريني فقد لقيت من الغيـ ... د بلاءً يضيـق منه البلاء
فتنكـرتُ للحيـاة وأهليـ ... ـها جميعاً .. وقلت كيف النجاء ؟
وتخيلتُـي جريحـاً بجرح ... ضقت ذرعـاً به وعزّ الشفاء
وتصورت أن حـواء شيطا ... نٌ طوتنـي غيومـه السوداء

وإذا دلفنا مع الشاعر بين مصراعي الوجود ، (الميلاد والموت) فإن موقف الشاعر يتسم بالكثير من الوضوح ، فهو يحس بغربته في هذه الحياة ، فلذا فهو يجتويها تطلعاً للإقتران بأحبائه في الأخرى ، ولقد سبق أن مرّ بنا قوله (٣٧) :

لتعذبـت مرتـين فقـد كنـتُ وما شئـت ثـم عشـتُ شقـيّا
إن صُلبا ومهبلاً أتيا بي ... أتيا —جاهلين— أمراً فريا
لو يكونان يعلمان لقالا ... حسبنا العُقْمُ بكرة وعَشيًّا
وأطاعا نـوازع الخـير لكـن قضائـي قـد كـان فيّ عصيّا

وهو ما يذكرنا ببيت المعري ، الذي أوصى بأن يكتب على قبره :

هذا جنـاه أبـي علـيّ ... وما جنيـت علـى أحد

كما مرّ بنا في الحديث عن (الحزن)

فالشاعر كان يخشى الحياة قبل الوصول إليها (٣٨) :

منذ بدء الخلق اعتراني .. أنا النطفةَ خوفٌ من الحياة شديدُ
فكأني أحسـت من عالم الذرّ ... بأني قلب أسيفٌ عميدُ

ولعل من سبقه إلى العالم الآخر أغراه ، بأن يتطلع نحو الموت ليلحق بهم ، كما أشار في شعره[٣٩] :

أين أرواحكم فإني حزين شدّ ما راعني الفراق المبين
أين أرواحكم سئمت من الوحـ دة واشتقت أن تحين المنون

ولذلك يرى في بقائه على أديم الأرض عذابا ، ولذلك تطلّع للحاق بهم[٤٠] :

يا رفاقا مضوا وخلّوا رفيقا مفرداً ليس حوله من رفاق
قد بدا لي من بعدكم أن عمري لم يعد غير لوعة واحتراق

ولذلك تحول تشاؤم الشاعر إلى تشاؤم إيجابي ، إذا صح أن نطلق عليه ذلك ، حيث اشرأبت روحه نحو الموت ، بل ويحس بالسعادة لدنو أجله ، ويعلّل ذلك بما انطوى عليه عالم الناس من غدر ، حيث يقول [٤١] :

إنني شاعر بموتي ولكني حفيٌ به طروب بقربه
ما الذي ارتجيه من عالم الغدر وروحي قد أثخنت منّ ضربه؟
كل من فيه يتقيني وما كا بد حربي وقد شقيت بحربه
أتراني أنا الغريب – وما أحفل أم أنني الشقي بسربه

ولكن مرد ذلك في تصوري رغبته في اللحاق بمن سبقه من أحبائه إلى عالم الخلود وقد تركوه أسيراً يرسف في قيده [٤٢] :

ليتني كنت بينكم فلقد كنا كدوح تساقطت أوراقُه
من خريف قسا فلم يُبق منها غير نزر تقرحت أحداقه
باكيا كالأسير في ربقة الأسر ، وقد فكت القيودَ رفاقه
خلفوه إلا قليلا كئيبا مثله .. طال في الخريف وثاقُه

ويؤكد ذلك في موضع آخر بقوله [٤٣] :

قولي لهم : إنني غريب ما تحن له الديارْ

قولي لهم: إنـــي طريد مـــا يقـــرّ لـــه قرارْ
قولي لهم: إنـــي أسير يستبـــد بـــه الإسارْ
قولي لهم: إنـــي رسيف ما أتيـــح لـــه الفرارْ

الثنائية

إن أبرز ملمح -في تصوري- وأكثر السّمات تفشياً في شعر الفقي ، هي الثنائية .

ولعلها ثمرة التأمل والاستغراق ، في مراقبة ما تنطوي عليه الحياة من مفارقات ، وما يدور على مسرحها من صراع ، بين الخير والشر ، ثم يفضي هذا الصراع إلى ما يؤلم ويؤذي ، حينما ينتصر الشر على الخير على خلاف ما يرجوه كل من يشايع الخير ، ويناهض الشر ويبغضه(٤٤) .

يلاقي الوعول الجد سهلاً معبداً	ويلقى به الاساد كل مصاب
سئمت فلو عاد الزمان مسالما	إليَّ ، لما عادت إليّ رغابي
وما عاد يشجيني ترنّم بلبل	ولا عاد يشقيني نعيب غراب

والثنائية في شعر الفقي تمثل انعكاساً للصراع الأزلي ، بين الموت والحياة ، والاستسلام للحيدة والمراقبة ، إزاء تلك الحوادث التي تختطف شاباً في ربيع عمره وتدع شيخاً فانياً في خريف عمره(٤٥) :

ولكنها الأقدار .. هذا دواؤه	يميت وهذا لا يموت بدائه
وهذا عجوز ضائق من بقائه	وهذا فتىً جازع من فنائه

والذي يبدو من خلال الاستقراء والإستنباط ، أن ظهور هذه الثنائية وإن كان مبكراً في حياة الشاعر الشعرية ، لمسنا ارهاصاته في ديوانه الأول (قدر ورجل) ، إلا أن المرحلة التي تلت ذلك ، شهدت تكثيفاً في استخدام هذه الثنائية ، ولذلك ففي أعماله المتأخرة يبدو التركيز على هذه الثنائية واضحاً ، وغزارة ورودها جليّة ، وإن لم تكن مقصودة لذاتها ، لأن التركيز على إيرادها قد يفسد العملية الشعرية ، إلا أنها ثمرة الإستغراق ، والتأمل ، والمقارنة ، وهي الأمور التي تتدرج تصاعداً ، وكثافة ، مع الشاعر خلال سني حياته وتجلت في أعماله الشعرية كانعكاس لتفاعلها في داخله وهو يرقب هذا الركب المغذ نحو النهاية ، وتيار الحياة وما يحفل به من صراع ، والتناقض والمفارقات التي تنطوي عليها هذه الحياة بمنح من لا

يستحق أعلى المراتب وحجب من يستحق عن أن ينال حقوقه وكيف أن الغلبة أضحت للبغاث وان الضعة والهوان أضحت من نصيب الأسود .

والمتأمل في أعمال الفقي لا يجد في ديوانه الأول قصيدة تحمل عنواناً يقوم على الطباق أو المقابلة أو أي توجه ينم على المقارنة والثنائية بينما ذلك أحد سمات بعض عناوين قصائده في المجموعة الكاملة ، فعلى سبيل المثال نجد ضمن عناوين المجلد الأول من أعماله الكاملة :

(أرض وسماء) (الأكل والمأكول) (الشرق والغرب يلتقيان) (العزلة والاختلاط) (الهيولي والروح) (وداع ولقاء) (القمم والقيعان) (تحية المشرق للمغرب) (فواجع وآمال) (رأسماليون وماركسيون)

أما تفشي ذلك بين ثنايا القصائد فهو من الكثرة بدرجة ملحوظة ، تقتضي كثرتها الإكتفاء بالإشارة إليها ، وكل متصفح للأعمال سيلمس ذلك جلياً .

على أنّه يحسن أن نعرج على ذكر أمثلة للصور التي وردت عليها هذه الثنائيات .

فهي إما أن ترد على صورة المحسنين البديعيين

١- الطباق[٤٦] :

فسبحان ربي في رخاء وشدةٍ	وسبحانه في منحه وعطائه
رضينا بما يقضي به إن مسرة	برحمته أو نكبـة بابتلائه
رضينا به في سخطه ورضائه	رضينا به في جهره وخفائه
له الحمد قد يقضي علينا بمحنة	ويتبعها مَنّاً بِحُسنِ عزائه
وما نحن في الأولى ولا نحن في التي	تليها سوى عُبدانِه وإمائه

٢- المقابلة[٤٧] :

ووجوه تبدي التهلل والبشـ	ـرَ ... وبين الصدور يثوى الصدود
وجُدودٍ تهوى .. وقد مسّها الكِبْـ	ـرُ ... وتعلو بالاتضاع جدود

٣– ربما أخذت هذه الثنائية صورة المقارنة لتبيان مزية أمر على أمر آخر ، أو الإشادة بأمر والازراء بآخر ، وتبيان واقع متألق زاهٍ بإزاء واقع مظلم مخزٍ[٤٨] :

أوّاه يا زمن البناء وآه يا زمن الخراب
كم قد لقينا مِن مرا زيءَ .. كم لقينا من تَباب
مِمَّنْ نقولُ .. هم الزّعا نِقُ شأنهُم شأنُ الذباب
فغدوا هُمُ السادات فينا قولهم فصل الخطاب
ولنحن أكثر في العديد ونحن آخر في المآب
أوّاه من بعد الخراب المنجيات من الصعاب
صرنا الغنائم للغزاة كمثل ربّاتِ الخضاب
ويلُ الضعيفِ من القويِّ وويلنا يوم الحساب
ذهب الأوائل بالثوابِ ونحن نذهب بالعقاب

٤– ويندرج ضمن الثنائية : الأسلوب القصصي ، والحواريات وتوظيف الضمائر في الجدل ، كقوله[٤٩] :

قالت ، وأشرعت الجفونَ ، كأنها بَبريقها المتخَطِّفُ الأسيافُ
إنّي أخاف عليك من عَنَت الهوى وغيرِه ، فالسمُّ فيه زُعاف
فإذا وردتَ ، فلا تَعُبَّ مجازفاً فالريُّ منه على القلوب ، جفاف
فأجابها : إنّي عيبتُ ، فحاق بي يا حلوتي ، ما كنت منه أخاف

وبعد :

فإنّ شعر الفقي بغزارته وثرائه ، يرفد الباحث بالكثير من الأمثلة والشواهد ، ولكننا آثرنا الإقتصاد في إيراد الأمثلة والشواهد ، لتتجانس مع طبيعة البحث .

ولا يضن هذا المعين الثر على من يرتاده طلباً في المزيد ، فليست هذه الاستنتاجات سوى صوى وإشارات ، تقوم على اجتهادات ، تنشد الصواب ، وتتطلع إلى أن تنتهم بجهد المقل ، وفوق كل ذي علم عليم .

جـــــــدة

الخميس ١٢ من رمضان ١٤١٦هـ

١ فبراير ١٩٩٦م

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١١) [illegible] ص ١٠٤

(١٢) [illegible]

(١٣) [illegible]

(١٤) [illegible] The theatre of ahmad

(١٥) [illegible] تاريخ الأدب العربي المعاصر ص ١٠٤

(١٦) مقدمة [illegible] ص ١٢

(١٧) [illegible] في المملكة العربية السعودية ص ٢٤٧

(١٨) [illegible] ص ٢٨٥

[illegible] ترجمة حياة) ص [illegible]

[illegible] ٢٥

[illegible] ١٣

[illegible] ٤١٤ — [illegible]

[illegible] ٤١٩

[illegible]

[illegible] ٤٢

[illegible]

[illegible] ص [illegible]

[illegible]

(٤٢) نفسه ٦/٤٠٦

(٤٣) نفسه ٥/٣٩٨-٩

(٤٤) نفسه ٢/١٤٠

(٤٥) نفسه ٦/٤١٨

(٤٦) نفسه ٦/٤١٨-٤١٩

(٤٧) نفسه ٨/٢٩٩

(٤٨) نفسه ٨/٦٣

(٤٩) نفسه ٧/٤٤٣

ثبت المصادر والمراجع

- أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) ، الأغاني الجزء الرابع
مصور عن طبعة دار الكتب – وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر
- جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
دارة المعرفة بيروت
- د/ عبدالله الجبوري ، أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين
بغداد ١٩٧٧ منشورات وزارة الثقافة والفنون – الجمهورية العراقية
- د/ عبدالله الحامد ، الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية
خلال نصف قرن (١٣٤٥هـ ١٣٩٥م)
ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي
- د/ عمر الطيب الساسي ، الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي
ط الأولى ١٩٨٦م – ١٤٠٦هـ جدة المملكة العربية السعودية
نشر (تهامة) سلسلة الكتاب الجامعي .
- محمد حسن فقي ، الأعمال الكاملة للشاعر محمد حسن فقي
الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة
- = = = ، ترجمة حياة ط الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م جدة
كتاب الاثنينية الناشر عبدالمقصود محمد سعيد خوجة
- = = = ، رباعيات
ط الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م
الدار السعودية للنشر – جدة

- = = = ، قدر ورجل

ط الأولى ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م

الناشر ، الدار السعودية للنشر ، جدة .

- د/ محمد عبدالرحمن شعيب ، المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث

ط الثانية دار المعارف بمصر

- د/ محمد مصطفى حلمي ، إبن الفارض والحب الالهي

ط ١٩٧١م دار المعارف بمصر